مهرجان في العالم السفلي

. سـامي مـهـدي ❖ .

أمر :

« لا مليكَ هنا، أو أميرَ، سوايْ!

فأنا، ربَّةُ التّاجِ والصّولجانْ،

قدْ دعوتُ إلى أن يُقامَ لكمْ مهرجانْ.

فاحضروا، كلُّكمْ، في الأوانْ

إنْ طمعتمْ بمغفرتي ورضايْ. »

إرشكيغالْ[1]

❖ ❖

نهضتْ إرشكيغالُ من نومِها وهْيَ تحلمُ بالمهرجانْ

وأشارتْ إلى أربعٍ من وصيفاتِها الحائراتِ،

فجَمَّلْنَها، ثمَّ ألبسنَها ثوبَها وقلائدَها،

ووضعنَ على رأسِها تاجَها الحجريَّ،

وسَلَّمنَها الصّولجانْ.

ومشتْ بينهنَّ إلى قاعةِ العرشِ في ثقةٍ واحتشامْ

وعلى جانبيْها مسوخُ بلادِ الظلامْ

نُظِّمتْ في صفوفٍ ، وخلفَ الصفوفْ

كانَ ثَمَّ حشودٌ تُحَدِّقُ صامتةً في الضيوفْ

وهْيَ، في مشيِها، تتخبَّطُ

حتّى تُقرقعَ أطرافُها كعصيٍّ من الخيزرانْ.

❖ ❖

حينما جلستْ فوقَ ناصيةِ العرشِ واعتدلتْ

حدَّقتْ في الوجوهْ

وبدا أنّها تتأهَّبُ للبدءِ بالمهرجانِ،

فقالتْ لمن نظَّموه :

ـ « ابدأوا! »

كانَ في وجهِها حفرتانِ وعينانِ فارغتانْ

تنفثانِ لهيباً كأنّهما موقدانْ

وفمٌ أدردٌ، أجردٌ، نبتتْ فيهِ أفعى مكانَ اللسانْ.

ثمَّ عادتْ وقالتْ لمن حولها :

ـ « أفلا تبدأون . . ابدأوا؟!

أينَ هم هؤلاءْ؟!

أينَ مَنْ قيل لي : إنّهم شعراء؟!

وأينَ المغنّونَ والمنْشِدونْ؟!

وأين الـ . . ؟! »

فقامَ وقاطعها أحدُ الجالسينْ:

ـ « عفو سيّدتي . . إنّهم مضْربونْ!

رَفَضوا أنْ يُطيعوا أوامرَ حُرّاسِهمْ،

ورضوا، بعد طولِ مجادلةٍ، أنْ أكونْ

نائباً يتحدّثُ عنهم، فهل تأذنونْ؟! »

❖ ـ شاعر من العراق

١ ـ إرشيكيغال هي ملكة العالم السفلي في عقائد العراقيين القدامى وهي ابنةُ «آنو،» كبيرِ الآلهة في تلك العقائد

كظمتْ غيظَها إرشِكيغالُ واصطنعتْ في الكلامِ البرودْ:

ـ «قد أذنتُ، ولكنْ ألا قلتَ لي: مَنْ تكونْ؟!»

ـ «عفو سيّدتي، لستُ أكثرَ من شاهدٍ في الشُّهودْ

عِشْتُ في عالمِ الكلماتْ

نحوَ ستّينَ حولاً من الحلمِ والأمنياتْ.

كانتِ الكلماتْ

عُدَّتي في حياتي،

وكنتُ أريدُ بها أن أغيّرَ شكلَ الحياةْ.

كنتُ أحسبُ أنّي محيطٌ بها،

وعليمٌ بأسرارها،

كنتُ أحسبها آلةً في يدي تَصْنعُ المعجزات

ولكنّني..»

ـ «قفْ.. كفى هَذَرًا..»،

صرختْ إرشِكيغالُ،

«ما هذه التُرَّهاتْ؟!

أَوَجئتَ تحدِّثنا عن غرامكَ بالكلماتْ،

أمْ عن الشعراءِ العُصاةْ؟!»

ـ «عفو سيّدتي، ما تحدَّثتُ إلاّ عن الشعراء،

فالحديثُ عن الكلماتِ حديثٌ عن الشعراء،

فهمْ لعبةُ الكلماتْ!»

ـ «لعبةُ الكلماتْ؟!

حسنٌ.. أَرِني كيفَ!»

ـ «سيّدتي، همْ يظنّونَ أنَّهمُ اللاعبون،

فيبنونَ منها جنانًا من الوهمِ

تنهارُ من حيثُ لا يَعْلمون!

شُغِفُوا بالغناءِ، وما هو إلاّ بكاءْ،

وغَلَوْا في المديحِ،

وما علموا أنه لغةٌ في الهجاءْ،

وكلُّ ثُنائيّةٍ، في الكتابةِ والقولِ،

وجهانِ للشيءِ،

لا، بل قناعانِ.

أمّا حديثُ النقائضِ فهو افتراءْ؛

فالدلالاتُ مائعةٌ

كالغيومِ إذا انتشرتْ في السماءْ،

تتشكَّلُ في لحظةٍ ثمَّ تنحلُّ،

تنقضُ أشكالها؛

والفضاءْ

مسرحٌ غامضٌ،

وعروضٌ مزوَّقةٌ تفتنُ البلهاء.

هكذا هو، سيّدتي، عالمُ الكلماتْ؛

فهْيَ أرجوحةٌ للدلالاتِ

تلهو بها حينَ تفتنُ أخيلةَ الشعراءْ،

وتطيرُ بهم فوقَ أجنحةٍ من حريرٍ،
وتقذفهم في سعيرٍ من الرغباتْ،
فيظنّونَ، من فرطِ غفلتِهم، أو براءتِهم،
أنَّهم أخوةُ الأنبياءْ!»

❖ ❖

ضحكتْ إرشكيغالُ،
لكنّها أمرتْه بألاّ يُطيلْ،
بل يعود إلى الشعراءِ وإضرابهم
بكلامٍ قليلْ.

ـ «أمر سيّدتي ، سأعودُ إلى الشعراء
فهم طولبوا بمدائحَ يُلقونها اليومَ في المهرجانْ،
فَأبَوْا،
فأحاطتْ بهم ثُلَّةٌ من جنودكِ، سيّدتي،
عَذّبتْهم، وأَزرتْ بهم،
وأرَتْهم صنوفَ الهوانْ.
ولذا أضربوا..»

ـ «ولذا أضربوا، قلتَ؟!»

ـ «سيّدتي، إنَّهم مُحبَطونْ،
ويقولونَ في حيرةٍ:
أنفاقٌ هنا ونفاقٌ هناكْ؟!
أفلمْ نتعلَّمْ، إذن، أنَّ وجهَ الملاكْ
صورةٌ للهلاكْ؟!
وأنَّ المديحَ، وقد قلتُها، لغةٌ في الهجاء؟!
فعلامَ المدائحُ ثانيةً؟!
وعلامَ التورّطُ في شَرَكِ الكلماتْ؟!
عفو سيّدتي، هو ذا كلُّ ما جئتُ أحملُه من كلامٍ
عن الشعراءْ!»

❖ ❖

ضحكتْ إرشكيغالُ ثانيةً،
ثمَّ قالتْ لمن حولَها في اتّزانْ:

ـ «أتركوا الشعراءَ وما يكتبونْ
ودعوهم، إذا سَكَتوا، يَسْكتونْ
بل دعوهم، إذا عَبَثوا، يَعْبثونْ،
فَوَ آنو، أبي ، إنهم فوقَ ما وُصِفوا
في كتابِ الظنونْ!»

ثمَّ قامتْ إلى شأنها، وانتهى المهرجانْ.

بغداد